بواعث النهضة الأدبية في الحلة واتجاهاتها الوطنية من عام 1800-1920

حسن دخيل الطائي
كلية التربية – جامعة بابل

بواعث النهضة الأدبية في الحلة وأهميتها

لقد كان لهذه المدينة العربية الإسلامية تاريخ حافل, بالأمجاد منذ تأسيسها في أوائل القرن الخامس الهجري والى يومنا هذا ,ولعل ذلك يرجع إلى أسباب عديدة منها, إن مؤسسيها بني مزيد عرب أقحاح ,ينتمون إلى قبيلة بني أسد العربية التي كان لها شأن كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ,إضافة إلى أن بني مزيد هم من أمراء العرب وقد جسدوا في نفوسهم كل الخصال الحميدة التي كان حمل هذا اللقب يتطلبها ,فقد جمعوا بين الفروسية والكرم والعلم والروح الأصلية المتوثبة إلى الغد المشرق ,فكانوا شغوفين بالعلم حيث إن جلّهم من الأدباء المتضلعين من قول الشعر مما جعلهم ذلك أنْ يولوا الأدب الاهتمام الذي يستحقه فكان بلاطهم يزدحم بالشعراء والأدباء والعلماء الذين أجزلوا لهم العطاء[1], والذين شكلوا فيما بعد نواة النهضة العلمية في الحلة.

وعلى الرغم من أن العصر الذي نشأت فيه الحلة كان يشكو الاضطراب السياسي وتمثل ذلك بظهور بعض الدويلات التي كانت تصطرع فيما بينها وما أعقبه بعد ذلك من سقوط بغداد على يد المغول غير أن هذه الأوضاع لم تضعف إرادة هذه الإمارة الفتية , ولم تنل منها بل على العكس فقد نهضت هذه المدينة بعد سقوط بغداد بمهمة المحافظة على التراث العربي والإسلامي من الضياع ,وعملت على حفظه وقد تولى هذه المهمة طبقة كبيرة من العلماء والأدباء وكان لبني مزيد الفضل الأول في نشوئها. إضافة إلى الأسر العلمية الموسرة التي أخذت على عاتقها مهمة رعاية الحركة الأدبية والعلمية ,وحشد الحليون لهذه المهمة كل إمكانياتهم , فكان الحليون يبتاعون الكتب بالمبالغ التي يتقاضونها من بيع محاصيلهم الزراعية ليضعوها في خدمة طلاب العلم[2].

غير أن النهضة الأدبية في الحلة قد بلغت أوجها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهو القرن الذي سبق النهضة الأدبية المعاصرة ,ولعل ذلك يرجع إلى عدد من العوامل منها أن هذا القرن هو أقرب القرون إلى النهضة العربية الحديثة مما أتاح لجيلنا فرصة الاطلاع على نتاجه الأدبي قبل أن تعبث به يد الأقدار, ويصبح في زوايا النسيان.وعلى الرغم من أن الحكم العثماني عمل على عزل العراق عزلا تاما عن العالم طوال فترة حكمه, بيد أن النهضة الحديثة التي شهدتها تركيا والأقطار العربية المجاورة للعراق مثل بلاد الشام ومصر قد وصلت بعض إشعاعاتها إلى العراق[3].

كما لا ينكر وجود ولاة مصلحين أرادوا إصلاح ما أفسده الحكام الذين سبقوهم ,وكانت دوافعهم مختلفة في هذا الميدان ,في ذلك يقول الأستاذ محمد مهدي البصير ان الظروف هيأت لهذه النهضة حماة وانصاراً لم يكونوا في الحسبان فقد تعهدها نفر من الولاة العثمانيين النبهاء,منهم داوود باشا

---

(1) ينظر شعر صفي الدين الحلي,جواد أحمد علوش,بغداد,1959ص41.

(2) محاضرات القاها د.جواد أحمد علوش على طلبه كلية الاداب 1974 ص3.

(3) الشعر والشعراء في العراق ,أحمد أبو سعد, المعارف,بيروت ص(5).

الذي حكم العراق في سنة 1232–1247 وعلي رضا باشا الذي تولى حكم العراق 1247–1259كما خصها بالرعاية والعطف عدد كبير من الأسر العراقية النبيلة, ومن هذه الأسر الحلية آل القزويني ,وآل النحوي ,وآل سليمان وغيرهم.فهي أسر توارثت مهنة الأدب طوال القرون السابقة ونبغ منهم عدد كبير من الشعراء والأدباء المجيدين ,إضافة إلى رعايتها للعلماء والأدباء ,فقد نذرت نفسها لخدمتهم ,وسخرت لهم كل إمكانياتها المادية والمعنوية. [1]

والحلة من المدن العربية التي تمتاز بمناظرها الخلابة ,وسحر طبيعتها الفاتنة ؛وهذا ما ينشط القرائح ويرهف الإحساس ,ويعمق الشعور ويدفع الإنسان إلى التعبير عما يحس بشعر رقيق جميل[2].ويكاد يجمع معظم الباحثين الذين درسوا أسباب نهضة الحلة الأدبية على هذا العامل إذ قال الأستاذ الوائلي (كانت الحلة في موقعها الجغرافي الجميل موطناً من مواطن الشعر بل كاد الشعر أن يكون فيها سليقة يجري على كل لسان ,وحسبنا أن نعرف من موقعها أنها تطل على جانبي الفرات بالقرب من بابل القديمة , وقد تعانقت عليها ظلال النخيل وأفياء الشجر الوارف , وعلى مدى غير بعيد منها تنساب الفروع والجداول خلال البساتين الخضر) [3]. ويشاطرهم الرأي ذاته الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ,بقوله (وقد ساعد الحليين على هذه العبقرية ولطف القريحة والأريحية طيب التربة و لطافة الهواء وعذوبة الماء,ومن هذا شاع نعتها بالحلة الفيحاء) [4].

ويبدو تأثير هذه البيئة الجميلة في ازدهار الشعر في الحلة,في الأعداد الكبيرة من الشعراء الذين أنجبتهم هذه المدينة ,حتى أصبحوا طبقة لها ثقلها في المجتمع الحلي , وأصبح الشعر ينساب على ألسنة الحليين من غير أن تختص به مجموعة دون غيرها , فقد(كان نظم الشعر سهلا ومطاوعا حتى على السنة الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون فيأتون به عذباً جميلاً لا خروج فيه عن قواعد اللغة وأوزان العروض فيذكر في ذلك موقف ظريف لشاعر كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وكان لا يعرف نحواً ولا صرفاً ولا لغة ولا عروضاً ينظم نحتاً من قبله جرياً على الذوق والسليقة واستناداً إلى ما توحيه إليه القريحة من دون تغاير في الأساليب والاختلاف في التراكيب فإذا اعترض عليه أحد بزلة لحن في العربية يقول:(راجعوا قواعدكم فالقول قولي) فيجدون الأمر كما قال)[5]

في حين رأى الأستاذ بدوي طبانه ,أن نهضة العراق الأدبية في القرن المنصرم التي تعد الحلة واحدة من أبرز المدن العراقية التي تمثلت فيها هذه النهضة – وليدة عوامل دينية بحتة.

احتل فيها الشعر الديني جزءاً كبيراً من أشعارهم ثم علَّل أسباب ذلك تعليلا جميلا قائلاً(في هذه الفترة أعرض أبناء البلاد عن السياسة أو أعرضت عنهم السياسة ,فليس لهم في الكثير الغالب طموح إلى منصب ,أو تطلع إلى وظيفة فانصرفت جهود أذكيائهم ,وذوي المواهب منهم ,إلى الأدب ,فكانت نهضة أدبية عواملها دينية بحتة عمت الأقاليم الجنوبية وكان مركز هذه النهضة بعض حواضر العراق وأشهرها النجف والحلة) [6].

---

(1) ينظر نهضة العراق الأدبية ,محمد مهدي البصير ,مطبعة المعارف–بغداد ص11

(2) ينظر صفي الدين الحلي ص40

(3) الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر/إبراهيم الوائلي /مطبعة المعارف/بغداد 1972 ط2 –116

(4) البابليات/محمد علي اليعقوبي ,مطبعة الزهراء –1951–المقدمة ص(5)

(5) المصدر نفسه ص59

(6) معروف الرصافي , حياته وشعره وبيئته ,بدوى طبانه /القاهرة –1957 ص21

أما الأستاذ البصير في حديثه عن نهضة العراق الأدبية في القرن المنصرم ,التي تشكل نهضة الحلة جزءاً كبيراً منها فقد ذهب إلى ترجيح العامل الذاتي ,الذي يقول أن الشعر بالنسبة للعراقيين شيء غريزي ,قد فطروا عليه,وان الله سبحانه عز وجل قد منحهم هذه الموهبة التي جعلت الشعر ينساب على ألسنتهم من غير تكلف أو عناء ,فقال:-(إذاً فالعراق مدين بنهضته الأدبية في القرن المنصرم قبل كل شيء لما أتاه الله من سلامة الفطرة وصفاء الطبع وجودة السليقة) [1]إن مثل هذا الكلام ينطبق تماما على النهضة الأدبية في الحلة.

وقد خلص الأستاذ محمد مهدي البصير إلى هذه النتيجة بعد أن أعيته الحجة وهو يمعن النظر في عصره ,فلم يجد فيه شيئاً يشجع على قيام نهضة أدبية ,فالعصر عصر ظلام ,والعراق مغلوب على أمره وقد تعاقب على حكمه ولاة عرف معظمهم بالسطوة والتسلط والطيش والنهب والجهل ولم يعبروا عن ادني اهتمام بشؤون الحكم ولم تهمهم مصالح المواطنين من قريب أو بعيد , بقدر ما تهمهم مصالحهم التي كانوا يبتكرون الوسائل في سبيل ابتزاز الناس والحصول على أكبر قدر من الأموال والمكاسب ,فضلا عن أنهم من الأعاجم الذين لا يفقهون العربية , ولا يتذوقون أدبها , وهم في ذلك عكس الخلفاء والأمراء العرب الذين كانوا يعنون بالحياة الأدبية,ويعطونها جل اهتمامهم.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الشعر العربي في العراق , كان له شأن كبير في حياة العراقيين واحتل منزلة رفيعة من نفوسهم في جميع العصور وظل حياً صامداً في أحلك الظروف التي مرت على العراق وهو يقارع عوادي الزمن ,وان هذا التراث الشعري الضخم الذي خلفه الأوائل , نهلت منه أجيال الشعراء في عصورهم المتعاقبة,مما جعل (الأدب العربي لم تخب ناره ,ولم يخمد أواره فهو في تجدد وحياة ما دامت الآثار باقية على مر الأيام , وما يزال الباحث يرد من منهلها العذب) [2].

ونجد الرأي ذاته عند الأستاذ إبراهيم الوائلي الذي عزا ازدهار الشعر في الحلة , إلى ما ورثته من ميراث شعري ضخم تأثرت فيه وسارت على نهجه فقال: (كان لها من تاريخها القديم ميراث ضخم من العلم والأدب والشعر كثير وقد حافظت على الميراث وسارت على نهجه وتعدد فيها الشعراء وقالة القريض). [3]

وممن شغل بهذه النهضة الشيخ يوسف كركوش في كتابه تاريخ الحلة ,فقد أجهد نفسه من أجل أن يضع يده على الأسباب الحقيقة لها ,فانتهى به الأمر إلى القول (قد يتساءل المرء عن عوامل هذه النهضة الأدبية مع انحطاط الحياة السياسية أنذاك,وسوء الحالة الاقتصادية ,وتناقص العمران أقول لا رابط بين الحياة السياسية والنهضة الأدبية, إذ قد تكون الحياة الفكرية صدى لما يساور النفوس من تذمر لتأخر الحياة السياسية والاقتصادية[4].لقد أصاب الشيخ كركوش فيما ذهب إليه لأن فساد الأوضاع ,ربما يكون عاملا قويا في إذكاء روح النهضة ,والإلهام في قول الشعر ,لأنه يثير في نفس الأديب مشاعر الغضب والسخط على واقعه ,فيدفعه ذلك إلى الثورة لذلك نرى أن كثيراً من حالات النهوض تنشأ في ظل مجتمعات غارقة في التخلف والجهل ,وخير مثال يمكن أن يضرب بهذا الخصوص هو النهضة الأدبية التي نشأت في العصر الجاهلي ,وهيأت أذهان العرب لاستقبال الدين الإسلامي. وحدث مثل ذلك في كثير من بقاع العالم ,ومنها على سبيل المثال لا الحصر روسيا القيصرية ,كانت تعاني من جمود الحياة فيها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لكنها

---

[1] نهضة العراق الأدبية ص13

[2] تاريخ الأدب العربي في العراق/عباس العزاوي ,مطبعة المجمع العلمي /العراق بغداد-1962 جـ2 ص18

[3] الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشرص117

[4] تاريخ الحلة ,القسم الثاني,يوسف كركوش ,المطبعة الخيرية-النجف-1965ص134

شهدت نهضة أدبية مرموقة [1].ومما تقدم يمكننا أن نخرج بنتيجة هو أن بذور النهضة تنمو في رحم مرحلة الانحطاط والتدهور,مثلما تنمو بذور التفسخ في جسم المجتمعات وهي تعيش في قمة ازدهارها ,لذلك نجد أن المرحلة الممهدة للنهضة العربية الحديثة ,قد ولدت داخل مرحلة الانحطاط نفسها.

واختلف الباحثون الذين تناولوا هذه الفترة بالدراسة في نظرتهم إليها فمنهم من ذهب إلى أنها نهضة أدبية ازدهرت فيها الحياة الأدبية ,ونجم عنها نبوغ عدد كبير من الشعراء وفي طليعة هؤلاء الأستاذ محمد مهدي البصير في كتابه نهضة العراق الأدبية التي تشكل نهضة الحلة مساحة واسعة من مؤلفه ويشاطره الرأي ذاته الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء الذي قال (دخلت الحلة قبل نصف قرن أو أكثر ولعلها أول زيارتي لها,فوجدت الشعر الرقيق الندي والأدب البارع الذي يأخذ بالأفئدة والمسامع وجدته يسايرني أنّى سرت ويحل معي أينما حللت, وجدته يمشي معي في الشوارع والأزقة,في الأسواق والحوانيت لا يختص به عالم عن جاهل ولا يمتاز به متعلم عن أمي) [2].

غير أن هناك عددا من الباحثين رأى أن شعر هذه الفترة هو استمرار لشعر العصور المظلمة ((أوغل معظم شعراء القرن التاسع عشر في التقليد وكان للشعر عندهم في أكثر أمثلته,لعبة أو تهنئة أو طريقة مزاح أخوانية أو وسيلة تقرب أو نفاق أو كشفاً عن براعة لغوية أو إثباتا لقدرات في النظم سريعة)) [3]

في حين رأى آخرون أن شعر القرن التاسع عشر لم يكن نفسه ممهدا للنهضة لأنه (بقي يدور حول الموضوعات التقليدية في غير أصالة ولا إضافة أو ابتكار ,وظل مقيدا في الأعم الأغلب بقيود الصنعة البديعة) [4].

ومهما قيل من آراء مختلفة في شعر هذه الفترة ,لابد لنا من القول إن أولى الحسنات التي يمكننا أن نسجلها له كثرته ,إذ كانت من أخصب فترات العصور المظلمة نتاجاً وأغزرها شعراً بخاصة في مدينة الحلة التي نحن بصدد دراسة نهضتها ,وان هذه الطبقة الكبيرة من الأدباء نشؤوا في ظل فترة مظلمة ليس فيها وال يرعى الأدب,أو دولة تنفق عليه الأموال السخية , وان هذه النهضة الأدبية من أولى أهدافها هو تعليم الناشئة العربية علوم لغتهم ودينهم ,وان مثل هذه المهمة السامية كان لها ابلغ الأثر في المحافظة على هوية الأمة العربية الإسلامية من الضياع فهي وسيلة من وسائل مقاومة العرب للمد الأعجمي , كما أنها الأساس الذي انطلق منها شعراء النهضة والإحياء.

أما فيما يقال إن شعر هذه الفترة موغل في التقليد , وليس فيه ابتكار فلا يقلل من أهمية النهضة وخاصة إذا ما عرفنا (أن الحركة الأدبية خلال القرن التاسع عشر بدأت على شكل إحياء القديم والسعي وراء مضاهاة القدماء لان مصدر هذه الحركة كان المدارس العربية القديمة). [5]

إن تاريخ الأمم يكاد يتفق على أن النهضة تبدأ في إحياء تراثها ومحاولة محاكاة ذلك التراث والتقيد بسننه ومنه تنطلق مرحلة التجديد وفي ذلك يقول أحد الباحثين (إن روح التقليد والمحاكاة في أكثر أشعارهم وذلك طبيعي لأن كل نهضة أو حركة تبدأ مقلدة , تتطلع إلى النماذج الأفضل تحاكيها وتنسج على منوالها

---

[5] انظر تطور الشعر العربي الحديث في العراق د.علي عباس علوان/دار الشؤن العامة/بغداد ص24

[1] انظر مقدمة كتاب البابليات ص2

[2] الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور/جلال الخياط دار الرائد العربي 1987/ص12

[3] أدب العراق في العهد العثماني د.علي الزبيدي بحث نشر في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد(26)لسنه 1979 ص48

[4] نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق,محاضرات ألقاها د.جميل سعيد ,الدراسات العربية,1954 ص4

حتى تقف على أقدامها, معتمدة على نفسها , فما من حركة أدبية تنهض دون إرهاصات أو مقدمات) [1].وإن مثل هذا قد حدث في هذه الفترة , فقد اتخذ الشعراء من القديم منطلقا للتجديد فالنفحات الحارة التي أطلقها شعراء الحلة في القرن التاسع عشر في شعر الشكوى ,هي تعبير عن ضجرهم من واقعهم الفاسد الذي عج بالتناقضات الحادة من فقر ومجاعة وأوبئة وكوارث وفساد الولاة ,فقد تحولت من شكوى إلى شعر سياسي واجتماعي واضح المعالم والسمات.

كما ان هذه الفترة قد أبدعت لوناً من الشعر يدعى البند , وان مؤسسه شاعر حلي هو محمد بن خلفه وهذا الشعر رأى فيه بعض الباحثين أنه كان يمكن له أن يكون الممهد للثورة الشعرية الكبيرة التي حدثت في منتصف القرن العشرين لو قيض لشعرائها الاطلاع عليه [2]. أما الاتجاهات الوطنية للنهضة فيمكن أن نراها واضحة في شعر الشكوى الذي بدأ شعراً ذاتياً يعبر عن مشاعر الحزن والألم في نفس الشاعر ثم تحول إلى شعر سياسي واجتماعي واضح المعالم في الفترة التي أعقبت إعلان الدستور ,يعبر عن هموم الشعب وآلامهم ويحمل أهدافهم وتطلعاتهم.

تطور شعر الشكوى:

وعلى الرغمِ منْ أن هذا اللون من القريض كان موجودا في الشعر العربي منذ القديم لجأ إليه بعض الشعراء ليعبروا عما يختلج في نفوسهم من الحزن والألم وبخاصة عندما تدبر عنهم الحياة ,وتشتد عليهم عوادي الزمن ,وتضيق عليهم الأرض بما رحبت فيعبرون عن تلك المشاعر بشعرٍ يذوب حزناً وألماً ,ويطلقون الآهات الحارة المنبعثة من أعماق نفوسهم المكلومة ,يندبون حظهم العاثر ويشكون دهرهم الغادر.

بيد أن شعر الشكوى في هذه الفترة يكتسب أهميته في كونه يمثل صورة صادقة لطبيعة الحياة القاسية التي عاشها العراقيون في هذه الفترة وهم يقارعون واقعهم المرير وما كان يرميهم به من مآسٍ و ويلات ,لذلك نرى أن شعر الشكوى شكل ظاهرة لافتة للنظر إذ قلما يخلو منه شعر شاعر,وإن أجواء الحزن ألقت بظلالها الثقيلة على شعراء هذه الفترة الذين عبروا عنها تعبيراً صادقاً في غرض الرثاء وبخاصة رثاء آل البيت والإمام الحسين (ع). ((فجاء رثاء الشعراء للحسين صورةً صادقة كل الصدق للعواطف المكبوتة ولا يأتي الرثاء إلا عن شعور صادق ووفاء مستديم وإيمان عميق فرثاء الحسين أروع مثل للانفعال يفيض بروحانية عاليه تمثل الجزع الحائر والفجيعة النادبة)). [3]

وشعر الرثاء في معظمه يعبر عن خيبة الأمل التي أصابت العراقيين في الفترة التي أعقبت سقوط بغداد وما نجم عنها من زوال للسيادة الوطنية إذ أصبح العراقيون مسلوبي الإرادة مغلوبين على أمرهم واقعين تحت رحمة المحتلين لا حول لهم ولا قوه.

فقد أثرت هذه الأوضاع تأثيرا عميقاً في نفوس الشعراء ,لذلك نجدهم قد أسرفوا في غرض الرثاء لأنهم وجدوا فيه ما يلائم نفوسهم الحزينة واتخذوا منه وسيلة ينفسون به عن أحزانهم التي ضاقت بها ذرعاً صدورهم (لأن مصائب الإنسان مهما عظمت لا تقارن بمأساة الحسين فكان الشاعر يتخذ من الحسين وثباته وصبره نبراسا يهتدي بهدية) [4].

---

(5) الشعر في الحلة محمد حسن الحلي ,رسالة الماجستير ,جامعة بغداد,1977 ص446.

(1) قضايا الشعر المعاصر ,نازك الملائكة ,دار العلم للملايين ,بيروت ص12

(2) لشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ,د.يوسف عز الدين ,دار المعارف ص88

(3) المصدر نفسه ص88.

كما أن رثاء آل البيت (ع) اتخذه بعض الشعراء وسيلة للتعبير عما يضطرب في نفوسهم من ثورة وسخط على واقعهم المزري ((فكان الحلي* وأخرون يفصحون عن آلامهم الشخصية من خلال مراثيهم لآل البيت على نحو غير مباشر خوفاً من بطش السلطة وتعسفها و ملاحقتها لمن يمس مصالحها فتقترن لديهم أحزان الماضي بآلام الحاضر في طقوس يكون الشعر مدارها ومآلها)) [1].

فإن مثل هذه النفحات الحارة التي أطلقها شعراء القرن التاسع عشر تمثل أولى مظاهر الرفض للواقع الجائر الذي فرضه الغزاة على العراقيين ,كما إنها تمثل البداية العفوية للنهضة الحديثة التي بدأت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر وكانت بدايتها بسيطة لا تتعدى ردود الأفعال السلبية التي ظهرت على السنة بعض الشعراء نحو واقعهم المزري.

كما انه ليس غريباً أن نجد اضطراباً في مواقف الشعراء ,فنرى بعضهم يتخبط في مواقفه فتارة ناقماً ساخطاً على واقعه الفاسد,وتارة أخرى يمالئ ويتزلف إلى الحكام العثمانيين ,لأن هذه المرحلة تمثل بداية النهضة الحديثة بعد أن عاش العراقيون في انقطاع حضاري دام عدة قرون حرموا فيها من أبسط حقوقهم حتى أمسوا في جهل مطبق ,جعلهم لم يدركوا بعد حقيقة واقعهم المزري والجهات التي تقف وراء معاناتهم ؛فهم لم يعرفوا أن الحكم العثماني هو المسؤول الأول عن سوء أحوالهم العامة في هذا القرن لذلك ؛نجدهم صبوا جام غضبهم على الدهر ,وكأن الدهر هو الذي ألحق بهم هذا الأذى كله والأقدار هي التي خلقت منهم فقراء معوزين , ومن آل عثمان وولاتهم أغنياء مترفين.

ولكن حين تزداد قساوة الواقع ولم يستطع الشعراء تحملها,فيجأرون بالشكوى ويفصحون عن تذمرهم من مفاسد واقعهم , ويدفعهم ذلك في بعض الأحيان إلى القيام بردود أفعال سلبية تعكس سذاجة تفكيرهم منها على سبيل المثال يتخذون الهجرة من مواطن الذل وسيلة للخلاص.وإنّ ذلك يرجع إلى أن العراق كان معزولا عن العالم وبعيدا عن النهضة الأوربية إضافة إلى أن ((ملامح العصر وأبرز خطوط ثقافة القرن التاسع عشر ونوعية التعليم والثقافة التي يحصل عليها الشاعر منذ صباه على الطريقة التقليدية ما بين الكتاتيب والحلقات تجعلنا نتأكد أن ضيق الأفق وسطحية التفكير وسذاجة النظرة إلى الحياة)).[2]يتسم بها غالبية الشعراء غير أن هناك شعراء اتخذوا من الشعر الديني وسيلة لتأجيج المشاعر الوطنية ويمكن لنا أن نسوق أمثلة من الشعر قالها شعراء الحلة في هذه الفترة, ونبدأ بهذا الحدث الذي وقع قبيل أن يبدأ القرن التاسع عشر بسنتين الذي تضمن ما يأتي ((في سنة 1211هجرية كان أحد رجال الحكم في الحلة شخص اسمه محمود وكان عسوفا فتاكا؛وقد فتك ببعض رجالات الحلة,وهدم دورهم وسفرهم إلى بغداد تنكيلا بهم ,وان ما وقع عليهم كان بسبب ميلهم إلى الخزاعل))[3].الذين كانوا في صراع مع الحكومة العثمانية في هذه الفترة.

وقد هزت هذه الواقعة مشاعر أحد الأدباء الحليين الذي وصفها بأسلوب مؤثر قال :-((...فأتوا بأعيانها مقرنين بالأصفاد ,بلا راحلة ولا زاد ,وكأنهم أسارى بين الأجناد,من دار السلام بغداد ,إلى شر العباد وأضيعهم للرشاد ففعل بهم فعل من لا يقر بالمعبود ولا يعترف باليوم الموعود من تسمى بعكس اسمه

---

(1) الشعر العراقي الحديث مرحلة وتتطور ص31. (*) الحلي هو الشاعر حيدر الحلي.

(2) تتطور الشعر العربي الحديث في العراق ص24

(3) تاريخ الحلة الجزء الثاني ص129

محمود..فهدمت الدور ,وهتكت الستور فصبرنا والله على خلقه غيور ,فأخذ أخذ عزيز مقتدر وأصبح المعتبر به يعتبر ,وفي هذه الواقعة قال الكامل والأديب الحر النجيب محمد ابن إسماعيل[1].

قصيدة منها :-

عليك أبا السبطين لا يمكن العتب إلى متى ذا الجور يحمله القلـــــب
أفي كل يوم في ربى الهم والعنا يروح بنا ركب ويغدو بنا ركــب
وأظلمت الفيحاء من بعد بهجـــــة وكدر من آفاقها الشرق والغرب

فما أنشدت هذه القصيدة في المحافل حتى سلط الله عليه من قتله شر قتلة)) [2]

وهذا النص يعد صورة صادقة معبرة عن حقيقة الحكم العثماني القائم على الظلم والتعسف والشاعر هنا اتخذ من الشعر الديني وسيلة لتأجيج مشاعر وحماسة الناس.

وتصبح ظاهرة الحزن بارزة في شعر هذا العصر ((فقد نسي العراقي خلال هذه الفترة شيئاً اسمه السرور,ولم يعد يحس في طعم السعادة,ونسى صورة المرح والحبور ولا توجد منه في ذهنه إلا الأشباح الباهتة)). [3]والحلة واحدة من مدن العراق التي لحقها ما لحق العراق من ظلم وإذلال ,وهي ترزح تحت الاحتلال العثماني. الذي أمعن في تخريب البلاد وغالى في اضطهاد العراقيين بعد أن جردهم من حقوقهم وكبّلهم بقيوده الجائرة مما جعل الشعراء يكثرون من تنديدهم بالذل والدعوة إلى قيم البطولة والمجد.ويبدو ذلك واضحا في قصيدة الشاعر سليمان الصغير التي قالها في رثاء الحسين (ع):-

أرى العمر في صرف الزمان يبيد ويذهـــب لكـــــن ما نـــراه يعـــود
فكن رجـــلا إن تنض أثواب عيشـــه رثاثـــا فثـــوب الفخـــر منه جديـــد
وإياك أن تشـــرى الحـــيـــاة بذلـــــة هي الموت والموت المريح وجود
وغير فقيـــد مـــن يمـــوت بعـــــزة وكـــل فتـــى بالـــذل عـــاش فقيـــد
لذاك نضا ثوب الحياة ابـــن فـــاطم وخاض عباب الموت وهو فريد[4]

أما الشاعر حسن العذاري فتبدو ثورته أكثر عنفا وقوة مما سبقه من الشعراء فهو لا يطيق حياة الذل ,ولا يمكن له ان يعيشها او يرتضيها ,وهو يرى أن الأرض ليست ملكاً لأحد وإنما هي مُشاعة بين الناس فيقول حسن العذاري :-

لِـمَ أبقـــى قاطنا في ذلـــة وأرى الأرضَ إلى الخلقِ مشاعهْ
وَديـــار الـــذّل لا يَبْقى بهـــا غَيْـــر مَـــن عـــاش هـــوانا وخنـــاعه[5]

والهجرة هي واحدة من ردود الفعل السلبية التي يلجأ إليها الشاعر عندما تشتدّ عليه وطأة واقعه المزري ولم يعد قادرا على تحمله ,وهي شكل من أشكال الهروب من الواقع وان مثل هذا اللون من الشعر ,قد كثر في هذه الفترة ويعد عبد الغني جميل فارس ميدانه [1]

---

[4] هو محمد بن إسماعيل والملقب بابن الخلفة قال قصيدته في وصف ما أرتكبه الكولات من الفضائح بالحلة على عهد حاكمها محمود أغا السفاك وذلك عام (1211)هجرية.انظر البابليات ج/2-ص51

(1) تاريخ الحلة جـ2 ص23

[2] الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ص28.

[3] شعراء الحلة جـ2 ,ص23

[4] شعراء الحلة جـ2 ص52

بيد أن هناك ظاهرة بارزة في مجتمع القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين هي ظاهرة الفقر قد استشرت فيه ,وتحولت في معظم السنين إلى مجاعة مهلكة فتكت بعشرات الألوف من الناس, مما جعلها تستأثر بأهتمام شعراء الحلة.والحلة على الرغم من أنها تقع على أرض خصبة وافرة الخيرات ,غير أن أبناءها ظلوا يشكون شظف العيش,ولعل ذلك يرجع إلى أن موارد هذه المدينة استحوذ عليها القلة من الناس وهم الولاة والموظفون العثمانيون وبعض العراقيين السائرين في فلك السلطة العثمانية فالسلطان عبد الحميد كانت له إقطاعيات في العراق تسمى الأراضي الحميدية تزرع ويذهب حاصلها اليه [2].وما يقال عن السلطان يقال عن الولاة والموظفين العثمانيين,في حين حرم العراقيون من موارد بلدهم فهم يكدحون ويشقون غير أنهم لم يجنوا من شقائهم هذا سوى البؤس والحرمان.وهذا الشاعر حماد الكواز سئم الحياة ليس كما سئمها زهير بن أبي سلمى لطولها بل لضنك العيش الذي هو فيه ومما زاده المأ هو أن هناك اشخاصاً تبنى لهم القصور وينعمون بحياة مترفة في الوقت الذي ظل الآخرون محرومين يقاسون شظف العيش فيقول:

ولقـــــــد سئمت من الحياة لضنكها يارب فاجعلني مِنَ الأموات
ممن غدت تبنى القصور لـــهم ومن ذهبـــوا بأخراهم إلى الجنـــات

ونجد الحسرة ذاتها عند شاعر آخر هو حماد نوح الحلي [3].فقد امتلأ قلبه لوعة وألماً عندما رأى الناس تحسده على الرغم من معاناته الفقر المدقع:-

واحـــر قلبـــاه كـــم أحنى على كـــــمد هذي الضلوع واطويها على شجن
يدي من المال صفر لم تنل إربا وهـــذه فـــضـــلاء العصـــر تحسدنـــي[4] [4]

ويخرج الشاعر حسن البصير برؤية جديدة ,فيها نقد لاذع للجشع والتهافت على كنز الأموال واتخاذهـــا وسيلة لتكوين الجاه والنفوذ ,وإخفاء المثالب ,فقد أبطل الشاعر مزاعم هذا النفر من الناس

ورأى أن العمل شرف ,وغاية نبيلة, وخاصة حين تكون الثروة وسيلة إلى مساعدة الفقراء والمحتـــاجين من الأقرباء والناس ,وتحقيق غاية نبيلة في صيانة العرض والشرف ,وان مثل هذه المعـــاني هـــي إنعكـــاس لثقافته الدينية والأدبية ,وأجمل ما في رؤيته هي نفيه الفكرة القائلة إن المال يصنع الجـــاه لصـــاحبه,ورأى أن العلم وحده هو الذي يمنح الإنسان المنزلة المرموقة في المجتمع.

أرى الكسب للإنسان أسْنى المطالب يصـــــان به عـــــن رحمـــــه والأجانب
ومـمـــا شجانـــــي أنني بيـــــــن معشـــــــر لهم ثـــــروة أخْفـــت وجـــوه المعـــــايب
يقولون إن الفقـــر صعـــب فقلـــت والـــــ أســـى يَلْتظـــي بيـــن الحشا والترائب
أرى أصعب الأشياء في الدهر هينا إذا لم تصب عرضي سهام المثالب
وقالـــوا نـــرى أعلى المراتب أمره فقلـــــت لهم فـــــي العلـــــم أعلى المراتـــب [5]

---

[5] ينظر الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره ,د.سالم احمد الحمداني و د.فائق مصطفى احمد,جامعة الموصل 1987 ص35-

[1] تاريخ الحلة ص155

[2] هو محمد بن سليمان بن نوح الحلي الغريب الكعبي الشهير بحمادي نوح ,احد شيوخ الأدب في عصره ولـد سـنة1240 هـــ 1820م-وتوفي 1324.....انظر شعراء الحلة والبابليات جـ2 ,ص298.

[3] المصدر نفسه ص 298.

[4] المصدر السابق ص183.

وعندما تشتد قساوة الواقع على الشاعر ويصبح غير قادر تحملها بعد أن تغلق بوجهه سبل النجاة من المحن التي هو فيها ,فيلجأ الشاعر إلى معتقداته الدينية مستعينا بها فيدعو الأئمة والأولياء الصالحين ليفرجوا عنه هذه الكربة ويزيحوا عن صدره الغم ,وكثير ما كان الشعراء يستغيثون بالإمام المهدي المنتظر [1].الذي رأى فيه الشاعر سليمان الصغير[2].الأمل الذي يعوّل عليه في إزالة الشدائد فيقول :-

زعم الزمانُ عليّ أبــ واب الشدائد منـــــه ترتج
كذب الزمـــان بزعمـــه من غمه لم القَ مخرج
فالقائـــم المـــهدي عنّي كل ضيق فيه يفـــــرج[3]

وتبدو قصيدة ابنه حيدر الحلي أكثر وضوحاً,وهو يدعو الإمام المهدي المنتظر إلى تحقيق أماله في القضاء على الظالمين ,الذين تسلطوا على رقاب الناس وساموهم ذل الهوان ويعبر الشاعر عن نقمته على الحكام العثمانيين في دعوة الإمام المهدي المنتظر إلى أن يعلنها حرباً شعواء تقطع دابر الظالمين وترجع الحق إلى نصابه فيقول:-

أقـــائم بيت الهـــدى الطـــاهـــــر كـــم الصبـــــر فت حشـــا الصابر
وكـــــم يتظلـــــم ديـــن الإله إليك مـــــن النفـــــــر
الجـــــــائر

إلى أن يقول:-

إلى م وحتى م تشكو العقـــام لسيفـــــك أم الوغـــــى العاقـــــــر
وكم تتلظى عطاش السيـــوف إلى ورد مـــــاء الطلـــى الهامـــر
أمَـــا لقعـــودك مِـــنْ آخـــــــــــر أثرهـــــــا فديتـــــك
مـــن ثائـــــر
وقدها تميت ضحى المشرقيـــن بظلمـــــــــة قسطلهـــــــا
المائـــــــر[4]

وهكذا ((يستمر الشاعر في هذه النبرة الحماسية مصوراً بشيء من الوضوح ظلم السلطة العثمانية))[5].وان ثورة حيدر الحلي هذه جاءت رد فعل على قرار السردار عمر باشا الذي يقضي بتطبيق التجنيد الإجباري الذي يشمل الشاعر نفسه,لذلك تراه يهاجمه في هذه القصيدة ويصفه برجس الضلال [6].ومنها قوله:-

ولابد مـــن أن ترى الظالميـــن بسيفـــــــــك مقطوعـــــة
الدابـــــــر[7].

---

(5) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص27.

(6) هو ابو حيدر السيد سليمان بن داود الكبير الحسيني الحلي شاعرا مشهور واديب كبير ولد في الحلة. انظر شعراء الحلة ج2 ص18.

(1) المصدر نفسه ص22.

(2) ديوان حيدر الحلي عنى بنشره علي الخاقاني/النجف-جـ/1. 1950 ص73-83

(3) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص27.

(4) انظر الشعر في الحلة جـ/2 ص27

(5) الشعر العربي الحديث مرحلة وتطور ص33_34

وعندما يشتد الصراع بين الحكام العثمانيين والعراقيين نجد أن الشعراء الحليين يقفون إلى جانب شعبهم ,فهذا الشاعر صالح التميمي المقرب من داود باشا الذي تربطه به وشائج حميمة غير أنه غض الطرف عن تلك العلاقة ,وتعاطف مع أحد وجهاء الحلة الشيخ موسى ابن جعفر الجناجي حاول نائب داود باشا في الحلة أن ينكل به في ذلك يقول يوسف كركوش ((كان نائب داوود باشا في الحلة سليمان أغا كان كثير الهواجس والأوهام فمن ذلك أنه لما رأى تضامن الحليين ومراقبتهم لأعماله عزا ذلك إلى الشيخ موسى نجل العلامة الشيخ جعفر الجناجي ,واعتبره خطراً على أمن الحلة وسلامتها ,فطلب إلى الشيخ الخروج من الحلة ,وقد استاء أهل الحلة من هذه السياسة الهوجاء.

فقال الشاعر صالح التميمي :-

بمن تفخر الفيحاء والفخر دأبهـــــا وعنهـــــا ســـــار موسى بأهلـــــه

وغادرهـــــا من بعـــد عـــز ومنعـــة تحـــــاذر كيـــــد السامرى وعجله

ولما وصل إلى مسامع داود باشا ما قاله الشيخ صالح عاتبه فأجابه

زهتْ بأبـــي داود حلـــة بابـــل فألبسها بالأمْـــنِ بـــردة عدلـــــه

فكانت قديمـــا قبل موسى وقبله تحاذر كيـــد الســامـــري وعجلـــه[1]

وتعاطف الشاعر حسين سليمان مع الشيخ موسى في قصيدة راسله بها:-

لا تســـل بعد ما جـــرى عن فؤادي فهـــو خلـــف الظعـــن المســـوق مشوق

وعجيب بقـــــــاء إنسان عينـــــي وهـــــو فـــــي لجـــة الدمـــوع غريـــــق[2]

وهي إن تبدو مشاعر ذاتية الا انها تحمل في طياتها عواطف مكبوتة تعادي العثمانيين ولا تطيق وجودهم.غير أن مناهضة العثمانيين تظهر واضحة في الشعر الذي قيل في الوقائع التي ارتكب فيها العثمانيون جرائم مروعة ,مثل وقعة نجيب باشا في كربلاء التي راح ضحيتها عدد كبير من أهالي كربلاء ,وقد حدثت بسب امتناع أهالي كربلاء عن دفع الضرائب التي كانت تفرضها السلطة العثمانية فهزت هذه المجزرة الدموية مشاعر الشاعر صالح الكواز فنظم قصيدة حماسية هجا فيها العثمانيين هجاءً مقذعا وتوعدهم بالثورة على سلطانهم.

أيملك أمْـــر العُرْب مَنْ لا أبا لـــه ولم ينمـــــــه منهـــم نـــزار وخنـــــدف

لئيـــم فمـــا للصفـــح عنـــد اقتـــداره محـــــــل ومـــا للحلم إنْ هاج موقـــف

أحبّ الورى مَنْ ليس يَحنو عليهمُ لديـــــه وأعـــــداهـــمْ لـــــــه المتلطّـــفُ

ومن لقطته العاهـــرات من الخنـــا فكيـــف بأبنـــــاء العفائف يلطـــــــف

---

[1] تاريخ الحلة جـ/1 ص135.

[2] المصدر نفسه،ص.135

وإنّـــا لنـــــدري أن يومك كائـــــــن وإن حـــــال فيـــــه عـــن سواه التخلـــفُ

ولكننا لا نستطيع تصبـــــــــــــــراً لطـــــول أناة منـــك للقلـــــب تحتـــــــــف [1]

وكذلك يفصح الشاعر عما يضمره من مشاعر الاستياء تجاه الحكم العثماني في الوقائع المهمة التي تقع بين العرب والعثمانيين ,فتراه ينتصر لأبنائه ويقف إلى جانبهم ويهاجم العثمانيين ويندد بظلمهم وتعسفهم وهذا الشاعر جعفر الحلي قد اهتز فرحاً وهو يسمع أنباء ثورة الإمام بدر على السلطة العثمانية فبادر إلى نظم القصيدة يعلن فيها عن تأييده له ومباركته ثورته.

مُرْ وَانْه واحْكُمْ فأنت اليـــوم ممتثـل والأمر أمْـــرُك لا ما تأمـــــر الدول

عنك الملوك انثنوا عَجزاً وما علموا أأنت زدت علـــــواً أم هم سفلـــــــوا

إلى أن يقول :-

لولاك ذلت بنو الأشراف قاطبـــــــة كمـــا تذل إلى جرارهـــا الإبـــــل[2]

وله قصيدة أخرى أيد فيها بعض السادات من أشراف مكة الذين أرادوا التخلص من السيطرة العثمانية. [3].

ومن البديهي أن تكون مثل هذه الأحداث هي الوسيلة الفاعلة في نمو الوعي الوطني المناهض للعثمانيين ,لأنها تكشف حقيقة الحكم العثماني القائم على الظلم والتعسف ,كما أنها تهز مشاعر الشعراء وتثير في نفوسهم روح النخوة العربية الرافضة للذل والخضوع,وتحركهم نحو التطلع إلى حياة جديدة خالية من الاستبداد والتعسف.

الشعر السياسي والاجتماعي:-

ولكن مما لا ينكر أن الوعي الوطني طوال القرن التاسع عشر ظل بسيطاً وعفوياً ينمو ببطء ولم يفصح عن نفسه حتى مطلع القرن العشرين ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل منها أن الدستور أزاح عن صدور الوطنيين شبح الاستبداد ومنحهم في بادئ الأمر حرية القول مما جعلهم يعربون عما يختلج في نفوسهم بحرية تامة من غير أن يخشوا لائمة أحد,فطبيعة الحكم العثماني القائمة على الإرهاب وكبح الحريات فإنها لا تسمح لأحد أن يعبر عن أفكاره بحرية ,إذ إن أي نقد يوجه إلى السلطة العثمانية يعد كفراً وخروجاً عن الدين ويعاقب صاحبه بعقوبات تصل إلى الإعدام والعامل الأخر هو أن العثمانيين حكموا البلاد بأسم الدين وحاولوا أن يشيعوا بين الناس أن حكمهم استمرار لحكم الخلافة العربية الأسلامية وغالوا في الأمر حتى قالوا أن السلطان العثماني خليفة المسلمين وظل الله في الأرض وإنه مطلق الإرادة في الرعية.

وفي مطلع القرن العشرين ,وبخاصة بعد إعلان الدستور العثماني عام 1908,شهد العراق نموا متسارعاً في تطور الوعي الوطني في العراق ,وقد تضافرت على ظهوره عوامل عدة منها أن بعض أفكار النهضة قد دخلت إلى العراق عن طريق بعض المجلات العربية التي كانت تصدر في بلاد الشام ومصر في

---

(3) ديوان صالح الكواز الحلي –مطبعة النجف الأشراف 1384،ص80-81.

(4) تاريخ اليمن،عبد الواسع بن يحيى الواسعي،مطبعة حجازي،القاهرة،ط2،ص629.

(5) انظر الاتجاه القومي في الشعر العراقي ص45.

أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كما أن إصلاحات الوالي مدحة باشا التي وسّعَت أفاق العراقيين وغرست في نفوسهم روح التطلع إلى الإصلاح والتغيير يضاف إلى ما قلناه إن أبرز أعلام النهضة في العراق بعد الدستور,هم العراقيون الذين سافروا الى البلدان العربية والأجنبية المجاورة التي سبقت العراق بالنهضة مثل بلاد الشام ومصر وتركيا فقد اطلعوا على الأفكار الحديثة من خلال احتكاكهم بأعلامها في هذه البلدان وكان أبرزهم الزهاوي والرصافي[1].

لقد انعكست هذه الأفكار الجديدة على الشعر ,وعملت على تطور أغراضه (فتجافى الشعراء عن المدح وكفكفوا عن دموع الرثاء ونظموا أبوابا جديدة من الشعر استوحوها من أحداث جيلهم

وواقع زمانهم وطبيعة العلاقات التي رزح فيها قومهم) [2]. وأصبح الشعر السياسي والاجتماعي ظاهرة لافتة للنظر حيث سخر معظم الشعراء في هذه الفترة شعرهم لخدمة قضايا الأمة في الدعوة إلى التحرر والتقدم من خلال نقد الظواهر المدانة المتمثلة بالجهل والأمية , والفقر, والخضوع للسيطرة الأجنبية ,نقداً لاذعاً وحضوا العرب على بعث المجد العربي من جديد ,من خلال الأخذ بناصية العلم والمعرفة , والثورة بوجه الاستبداد والظلم و الاحتلال الأجنبي.

لقد اعتنق شعراء الحلة الأفكار الجديدة, ولقيت صدى طيباً في نفوسهم التي أنهكها الاستبداد والظلم,لذلك نجدهم أيدوا بكل جوارحهم حركة الإصلاح التي أرغمت عبد الحميد السلطان على الرضوخ لإرادة الأمة والتخلي عن الاستبداد , والعمل وفق حياة دستورية تضمن للشعوب المنضوية تحت لواء السلطنة العثمانية الحرية والمساواة.

وانضم بعض شعراء الحلة إلى حركة جمعية الاتحاد والترقي ,التي تزعمت حركة الإصلاح في تركيا والبلدان التابعة لسيطرة العثمانيين , وترأس الشاعر محمد علي القزويني فرع جمعية الاتحاد والترقي في الحلة وظهر دوره بارزاً في وقوفه إلى جانب الإصلاح ضد الاستبداد في البرقية التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد عام(1909)عندما حاول أن ينكث العهد الذي قطعه للشعوب العثمانية بمنح الدستور واسترداد سلطانه المطلق من خلال ابتداع صيغة جديدة بديلة عن الحياة الدستورية اسماها الجمعية الحميدية [3].

فقد ندد القزويني بتلك المحاولة اليائسة, وهاجم السلطان عبد الحميد وطلب منه أن يستسلم لإرادة الأمة ويتنازل عن عرشه وإلا سوف يحمله مسؤولية إراقة دماء المسلمين واضطراب الأمن في البلاد ,فقد لقى تهديده هذا تأييداً كبيراً من لدن شعراء الحلة الذين سارعوا إلى إعلان مباركتهم هذه الخطوة التي أقدم عليها السيد القزويني في مناهضة الاستبداد الحميدي , ومنهم الشاعر يعقوب بن الحاج جعفر الذي قال قصيدة جميلة استهلها بمدح القزويني:-

محياك في أفق الهداية أشْرقـــاً	فآذن أنْ يُمْحي الضلالَ ويمحقا
وقد كان جيد الدهر قبلك عاطلاً	ومنك بعقد الفضل عـــاد مطوقـــاً
ومنك المزايا الغر كانت خليقـــة	وطبعاً وكانت في ســـواك تخلقـــاً
إذا افتخرتْ قوم بتيجان ملكهـا	فأنك زدت التـــاج عـــزا ورونقـــا

---

[1] الشعر والشعراء في الحلة ص 5.

[2] انظر تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص97.

[1] انظر البابليات القسم الأول جـ/3 ص166.

ومن هذه الأبيات التي يشير فيها إلى نكث السلطان بعهده ويثني على موقف القزويني الحازم والساعي إلى الحرية والعدل والمساواة وعدت دعوته إلى العدل فتحاً اسلامياً جديداً بعد انقطاع حضاري طويل عاشته الأمة في غياهب الظلم والظلام.

رَعَيْتَ مواثيـــق الهـــدى يوم أخْلفـــت رجال له لا تَـــدْع عهـــداً وموثقـــــا
وغادرتَ رَبَّ القصر يَرْعد صاغراً لأمركَ مُـــذْ فاجأتهُ فيـــه مُبْرِقـــــــا
فمـــا دفعـــتْ عنـــه الفيالـــق عندمـــــا رأى كلّ حَرف منك وافاه فيلقـــــــا
و(بَرْقٌ)ســـــواك مـــــا فيـــه طائـــل ومـــــا كـــان إلّا بارقـــــا متألقـــــا
وقـــــــد كنت للإســـلام أول فـــاتح مِن العـــدل بابا لم يزل قبل مغلقـــا
فنـــام قرير العيـــن خائف دهـــره وقد كان مرتاع الجنـــان مؤرَّقـــــا
وكـــم من أسيـــر للزمـــان مقيـــد مَننت بـــلا مـــنَ عليـــه فاطلقـــا[1]

وواضح من هذه الأبيات أن الشاعر قد اطلع على مبادئ الإصلاح الجديدة ,وأدرك منافعها للناس, ولعل أجمل ما ورد فيها ,أنها تجعل الخائف المرتاع أيام الحكم العثماني المتعسف ينام قرير العين , هانئاً هادئ البال في ظل الحياة الدستورية التي دعت إليها الحركة الإصلاحية , وبخاصة بعد أن رأى الأغلال التي كانت تكبل الناس في العهد الحميدي ,قد تحطمت وحرية الناس قد أطلقت. ونظم الشاعر عبد المطلب الحلي قصيدة تشبه إلى حد ما القصيدة التي سبق وذكرناها في مدح القزويني , وهو يقف بوجه الطغيان الحميدي[2].

ويعد عبد المطلب الحلي فارس حلبة الشعر الوطني في الحلة , وشاعرها الأول ومن أشد المتحمسين للدستور , والمناصرين له, والمنددين بالاستبداد [1].ويبدو ذلك واضحاً في هذه القصيدة التي بارك فيها العملية العسكرية التي قامت بها الحركة الإصلاحية التي أجبرت السلطان عبد الحميد على التخلي عن العرش وأشاد في دورها في اجتثاث الاستبداد ونشر العدل والتساوي.

فهبّتْ رجالٌ مِن (سلانيك)أيقظـت إلى العدل عين الحزم والحـزم نائـــم
رجال هم الأسد الضراغم صولـــة لدى الروع لا أسد العرين الضراغـم
دعـــوا للتســـاوي دعـــوة وطنيـــة أجاب لهـــا منهـــم جهـــولٌ وعالـــم
فمـــا ضرّهم أن أنعم الله بالهـــدى عليهـــم بها أن الخليفـــة ناقـــم
تعجّـــلْ لمـــا في ردها نقمـــة بهـــا تقهقر عنه النصر والنصـــر قـــادم
فما منعت حزب التساوي حصونه ولا دفعت أحـــرازه والتمائـــم

---

[2] البابليات القسم الأول جـ/3 166-167.

[3] البابليات القسم الثاني جـ/3 ص45.

ولم يَبقَ مِنْ تلك العروشِ وإنْ علـــت بنـــــاء ســـــوى الأثـــــار فهي علائـــم
توجل عنها صاحب التـــــــاج واغتـــدى ترن بهـاتيك القصـــــــور الحمائـــــــم

والشاعر عبد المطلب الحلي من كبار دعاة اللامركزية الإدارية في العراق التي كانت تدعو إلى إنشـاء دولة عربية تتمتع بحكم ذاتي في إطار الدولة العثمانية ويعد ذلك تطوراً كبيراً يشهده الوعي الوطني في هذه الفترة.[1]غير أن حدوث الحرب العالمية الأولى قد أربك هذا الوعي وسبب لدعاة النهضة العربيـة إحراجـا كبيراً,لأن الحرب وقعت بين معسكرين مختلفين ,احدهما مسلم والأخر غير مسلم ,كانوا ينعتونه بـالكفر ممـا أدى ذلك إلى أن يتنازل بعض الشعراء عن المبادئ الوطنية التي كانوا ينادون بها ومنهم شاعرنا عبد المطلب الحلي الذي وقف إلى جانب العثمانيين ليكون منسجماً وعقيدته الإسلامية ,غير أن النبرة العربية ظلت بـارزة في معظم قصائده ,مما يجعلنا نؤمن تمام الإيمان بأن تلك الأفكار الوطنية مازالت راسخة في ذهنـه ,وهـي المحرك الفاعل لمشاعر عبد المطلب الحلي ,ونلمس مما قلناه واضحاً في معظم القصائد التي كتبها في تلـك الفترة ومنها هذه القصيدة التي استصرخ بها العرب وحثهم على النهضة وإحياء المجد العربي من جديد ويرى أن ذلك يتحقق لهم,بالعلم والمعرفة.

بني العُرب أنّ العصر بالعِلم أزدهـــــرا وصُبح الهدى من ظلمة الجهل أسفـــرا
تأخـــــرتم عـــن حقكـــــــــم وتقدمـــــت به أمم مـــــن
حقهـــــــــــا أن تؤخـــــــــــرا
تيقظ أهـــــــــل الغرب للعلـــــــــم قبلكـــم ونمتم لقد طالت بكم رقـدة
الكـــــــــرى
أنومـــــاً وصبح الرشد قد سل سيفـــه على مفرقي ليل الضـــــــــلال
فأدبـــــــــرا
ألستم بني القـــــوم الذيـــــن بعلمهـــــــم بنو الغرب حازوا في الفنون التصدرا
لقد أخذوا عنهـــــا المعارف دونكـــــم فكانوا بها منكـــم أحق
وأجـــــــــــــــدرا[2]

وله قصيدة اخرى يقول فيها :-

العرب عرب وان طاحوا وان سقطوا وما سواهم وان جلوا هم النبط
لا يرحل العز الا حيثـــــــــــــــما رحلوا وليس يهبط إلا حيثـــــــــــما هبطوا
سائل بهم امم الغرب التي ارتفعت فكل وجه به من حدهم شرط[3]

لقد أصاب الشاعر محمد علي اليعقوبي ما أصاب غيره من شعراء الحلة والعراق من اضطراب المواقف السياسية في هذه الفترة ,إذ تحول معظم الشعراء من مؤيدين للعثمانيين إلى مناوئين.وكان ذلك بسبب ازدحـام هذه الفترة بالأحداث السياسية الكبيرة وتسارعها وتناقضها في بعـض الأحيـان ,منهـا اسـتبداد الأطمـاع الاستعمارية , وتسابق دول الغرب حول الاستحواذ على ممتلكات الدولة العثمانية ,وظهور الحركات التحررية ,التي تبغي التحرر من السلطة العثمانية.إذ إن مثل هذه المواقف كانت تفرض على الشعراء الوقوف إلى جانب

---

[1] انظر نهضة العراق الأدبية ص336 والبابليات جـ/3 القسم الثاني ص42.

[2] المصدر السابق،ص42.

[3] ديوان اليعقوبي , مطبعة النعمان النجف ص227

العثمانيين في حربهم ضد الغرب الاستعماري , أو قمع حركات العصيان في الدول الأوربية الواقعة تحت نفوذ العثمانيين , وذلك يعد منسجماً وعقيدتهم الدينية , غير أن الاتحاديين ,لم يقدروا مواقف العرب المؤيدة لهم ,بل غالوا في عنصريتهم وخير مثال يمكن أن نسوقه واقعة عاكف في الحلة عام 1916 ,التي قتل فيها العثمانيون عددا من أبناء الحلة وهدموا وأحرقوا محلات بكاملها ,مما جعل اليعقوبي ينفض يده من العثمانيين ,ويندد بجرائمهم ويهجوهم هجاء مقذعاً في قصيدته التي قالها في رثاء أستاذه محمد القزويني حيث جاءت وفاته قبل حدوث واقعة عاكف بثلاثة أيام قائلاً:-

تبكي بتيار الدموع وحق أن تبكي لبحر نوالها التيار

حسرت وكنت لها الدلاص فأصبحت غرض الخطوب وعرضة الاخطار

قاست من الأهوال بعدك أهلها مالم يجُل بسوانح الأفكار

ومنها قوله التي يصف جرائمهم التي ارتكبوها بحق أهل الحلة:-

قتل ونهب وانتهاك محارم وحريق أوطان وهدم الديار

ما كان أقصرها يداً لولم يكن يخلو العرين من الهزبر الضاري[1]

وفي البيت الأخير يشيد بموقفه الحازم الذي اتخذه في العهد الحميدي الذي تمثل في رفعه برقية تطالب السلطان عبد الحميد بالتنحي عن الحكم ,أو بالرضوخ لإرادة الأمة والقبول بالحياة الدستورية والسير بموجبها،وفعلا انتهت الأمور إلى ما أراده القزويني بتنحية السلطان عبد الحميد عن الحكم.إما الشاعر محمد مهدي البصير الذي لمع نجمه في أثناء الحرب العالمية الأولى ,فقد عكس في شعره التطور المتسارع في الوعي الوطني ,الذي شهده العراق بعد إعلان الدستور العثماني عام (1908, فالبصير بحكم نشأته الدينية رأيناه في بداية حياته الشعرية السياسية إلى جانب الدولة العثمانية في مواقفها وحروبها ضد دول الغرب , ويبدو ذلك واضحاً في قصيدة (أبطال العثمانيين) التي مدح فيها أنور باشا ناظر الحربية العثماني :-

عقد الإله لواك فهو مظفر بالنصر مابين الممالك ينشر

وأطال عُنْق الدين سيفك اذ غدا في حدِّه باع العدو يقصر

ياصائنا تاج الخلافة و الذي فيه أقيم سريرها والمنبر

ومنها قوله :-

أمكافح الدول الثلاث بعسكر يغنيك عنه من المهابة عسكر[2]

فقد أيد البصير الدولة العثمانية لأنها تحكم بأسم الإسلام , وتدعى حماية أرض المسلمين من المطامع الغربية , ولكنه يسحب هذا التأييد , وينقلب إلى ناقم وساخط يسخر من أنور باشا الذي مدحه بالأمس ,بسبب

---

[1] ديوان اليعقوبي , محمد علي اليعقوبي , مطبعة النعمان , النجف ج/1 ص227

[2] انظر محمد مهدي البصير شاعرا منشورات وزارة الثقافة والإعلام –بغداد 19980 ص 30.

انحياز الأخير إلى ألمانيا , فقد عد البصير عمله جريمة لا تغتفر ,لأنه باع دولته للألمان في سوق المتاجر بثمن بخس ولا هم له إلا جمع المال وإرضاء قيصره الألماني فيقول على لسان أنور [1].

رجوت بموقفي فوزاً مبيناً فسقت لك العذاب به مهينا
ربحت بك المواهب والعطايا فبت مع الشعوب الأخسرينا
إذا الديـنار اسمعني رنينا فديت لصوته منك الأنينا
أصبت رضاء قيصري المفدى فأهون بالرجال الساخطينا
أقمنا للسياسة فيك سوقاً به الألمان كانوا مشترينا

غير أن موقف أنور باشا المؤيد للألمان لم يكن سوى الشرارة التي فجرت نار الثورة التي كانت تضطرم في صدر البصير ,نتيجة مغالاة الاتحاديين في سياستهم العنصرية ضد العرب , وقد عبر البصير عن ذلك في قصيدته ((أحرية أم عبودية))التي عرى فيها سياسة الاتحاديين القائمة على الخداع والتضليل.

سل الاتحاديين كيف تحكموا بحرية يستعبدون بها الحرا
فكم غمطوا حقا وكم آثروا هوى وكم نكروا عرفا وكم عرفوا نكرا
وكم سلبوا مالا له بسطوا يدا على الغصب ما أبقت لذي جدة وفرا
وكم نصبوا للأبرياء مشانقا وكم كبلوا حرا وكم ذعروا خدرا[2]

لقد أثرت سياسة الاتحاديين العنصرية في نفس شاعرنا ,وأججت في نفسه الروح الوطنية,وأصبح واحداً من ابرز دعاة للنهضة العربية الجديدة على غرار الدولة أيام العباسيين فيقول:-

هبي إلى المجد يا بغداد ناهضة وليتبع خطط الآباء ابناك
وأنتِ أنتِ إذا ما زاغ منقلب فواصلي لسرير المجد مسراك
عودي بتاج بني العباس منتظما فلا مقر لذاك التاج الاّكِ [3]

ويعكس لنا شعر البصير تطورا آخر شهده الشعر العربي في هذه الفترة هو ظهور الحس الوطني الداعي إلى إنشاء دولة عربية مستقلة ,فقد اعتنق البصير هذه الأفكار الوطنية وعبر عنها في معظم قصائده التي نظمها في هذه الفترة ومنها قصيدته (حول مدينة النبي) التي نظمها عام،1908،فقال:-

يا دار ملك جلالة القرآن بشراك هذا يوم بدر الثاني
يا أرض يثرب طهرتك جحافل كحلت بتربك أعين الفرسان
عقد الحسين عليك ألوية الهدى فلذاك حل معاقل التيجان[4]

---

(3) محمد مهدي البصير شاعرا،ص 31-32.
(1) محمد مهدي البصير شاعرا،ص 33.
(2) المصدر نفسه ص32.
(3) محمد مهدي البصير شاعرا،ص 33.

أما نضال البصير في ظل الاحتلال الانكليز للعراق , فقد كان اشد ضراوة , حيث وقف البصير بالمرصاد لسياسة الانكليز القائمة على الخداع والتضليل وعمل على تعريتها , وتزعم الحركة الوطنية المناوئة لهم , ويبدو ذلك واضحا في تنديده بمؤتمر السلام الذي رأى فيه بداية لإشعال الفتن والحروب بين دول العالم،فقال:-

أمؤتمر السلام عقد صلحاً أغظت مع الهلال به الصليبا
فما أطفأت للأحقـــــاد نارا بــل قد زد جمرتـــــها لهيبـــــــا[1]

الخاتمة :-

وفي ختام البحث لابد لنا أن نقول بأن البحث قد توصل إلى أن عوامل النهضة كانــت ذاتيــة يتعلــق معظمها بطبيعة الحلة , والمجتمع الحلي. أما تأثير العوامل الخارجية فقد كان ضعيفاً أي ان النهضة ظهــرت إلى الوجود بجهود أبنائها , وبفضل طبيعتها الساحرة الجميلة. وبين البحث أن للنهضة الأدبية في الحلة دوراً مشرفاً في حفظ تراث الأمة الأدبي وبعثه من جديد.وكان لهذه الجهود الفضل الأول في حفظ هوية الأمة من الضياع , على الرغم من ضراوة التحديات التي كانت تواجه العراق , إضافة إلى ذلك فأن لها ابلغ الأثر في تطور موضوعات الشعر وأساليبه وبخاصة بعد إعلان الدستور فقد تحرر الشعر من قيــود الصــنعة ونــزع الثوب القديم واخذ يتماشى مع أذواق العصر بعد أن تحرر من فرديته واخذ يعبر عن مشاعر الجماعة ويحمل آمالها وتطلعاتها ويبدو ذلك واضحا في شعر محمد مهدي البصير.

وأظهر البحث الدور الذي لعبه شعراء الحلة في هذه الفترة والخدمات الجليلة التي قدموها إلى المجتمع من خلال شعرهم.

المصادر والمراجع

1- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره,د.سالم الحمداني ,د.فائق مصطفى احمد جامعة الموصل 1987
2- الاتجاه القومي في الشعر العراقي الحديث ,حسن دخيل عباس الطائي ,رسالة ماجستير ,جامعة بغداد ,كلية الآداب 1983
3- البابليات ,محمد علي اليعقوبي , مطبعة الزهراء ,1951
4- البيان والتبيين ,الجاحظ ,دار الفكر للجميع ,1968
5- تاريخ الأدب العربي في العراق , عباس العزاوي ,مطبعة المجمع العلمي العراقي 1962
6- تاريخ الحلة ,يوسف كركوش ,المطبعة الحيدرية ,النجف 1965

---

[4] المصدر نفسه ص33.

7- تاريخ العراق في العصور المظلمة , جعفر الخياط ,دار الكتب بيروت.
8- تاريخ اليمن ,عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني ,مطبعة حجازي
9- تطور الشعر العربي الحديث في العراق , د.علي عباس علوان ,دار الشؤن الثقافية ,بغداد
10- ديوان حيدر الحلي ,عنى بنشره علي الخاقاني ,ج/1 ,1950 ,ج/2 ,1964.
11- ديوان صالح الكواز الحلي , مطبعة النجف , 1384
12- ديوان اليعقوبي ,محمد علي اليعقوبي مطبعة النعمان ,النجف 1957
13- الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ,ابراهيم الوائلي مطبعة المعارف ,1961
14-شعر صفي الدين الحلي ,د.جواد احمد علوش ,بغداد 1959
15-الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ,د.يوسف عز الدين ,دار المعارف ,مصر
16-الشعر العراقي الحديث مرحلة وتتطور د.جلال الخياط ,بيروت الطبعة الثانية 1987
17-الشعر في الحلة, محمد حسن الحلي,رسالة ماجستير جامعة بغداد 1977
18-الشعر والشعراء في العراق, احمد أبو سعد, مطبعة المعارف, بيروت
19-قضايا الشعر المعاصر ,نازك الملائكة ,دار العلم للملايين ,بيروت ص12
20- المجموعة الشعرية الكاملة ,محمد مهدي البصير ,دارالحرية للطباعة,بغداد ,1977
21- نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق ألقاها د.جميل سعيد,الدراسات العربية 1954 ص4
22- نهضة العراق الأدبية ,محمد مهدي البصير ,مطبعة المعارف,بغداد

المجلات:

- مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد26 لسنة 1979 (أدب العراق في العهد العثماني) د.علي الزبيدي.
- محاضرات في أدب العصور المتأخرة ألقاها الدكتور احمد جواد علوش على طلبة قسم اللغة العربية كلية الآداب 1973.
- مجلة صدى السلام العدد 183،مطبعة النعمان النجف.